

آف روقة فف فمجة العائلة

قصة بقلم ندم خشفة

الحفار - (لنفسه) جاء آخونا عند العصر ليعكر مزاجنا ..
معلش . حلمك ! (وبصوت مرتفع) والله ما انتبهت يا حاج ! هذا
مطر الباردة .. ربما مطر الباردة . تفضل اشرب كأس شاي !
الحاج - لا .. شكرا !

دخل الحفار فحمل مجرفة وزنبلا ، وأغلق وراءه الباب . دنا
من الشاهدة فعدلها ، وضرب تحتها بالمجرفة ثم أسندها ، ودس حولها
بعض الحجارة . ثم ردم التراب ، وجلس على طرف قبر ، يرقب الحاج
صبري ، يفظ الريشة ويرسم دائرتين ، واحدة جنب الأخرى .

فكر الحاج صبري : مات أبي وهو يظن ان خليفتي أنور . أنور
ما هو خليفتي . أنا خليفة أنور . أنا خليفة الجميع . من بقي بعدكم ؟
أنا بقيت بعد أبي وأمي وأخي وأنور . مات أبي متهايا وقال : سلم لي
على أنور ! الله يرجمه .. ما شاف كيف مرض أنور بعده . قال
الطبيب : الحصبة . الحصبة ؟ أنا اعرف باي شيء مات .. بمرض
العائلة . مرض العائلة أصابه وهو صغير . نظر الى الشاهدة قليلا ،
وهزها بيده يختبرها .

الحفار - قوية يا حاج .. الله القوي .
ولم يجبه ، كان يفكر : مرض العائلة أصاب أبي وما تجاوز
الخمسين . كنت في الثلاثين وقال لي : جئ لنا بولد يا بني . أريد
ان أفرح بخلفتك . أرى أولادك ينتفون شبيتي ! مرض العائلة أصابه
في الخمسين .

أين صار قبر أخي ؟
فقد أمام قبر جديد ، شاهدته بيضاء ، مسور بشبك من الحديد :
من يراه يظنه قبر ولي . هه . هه . هه . قبر أخي يشبه قبور الأولياء !!
امرأته أرادت له ذلك . قلت لها : حرام ، اجعليه كالأخرين ! نشفت
عيونها الزرق وقالت : أريد أن أزوره كل جمعة .. لا أريد أن أبحث
عليه بين القبور .. كان شامة بين الناس .. زوجي عزيز يا حاج !
ونصبت عليه شبك الحديد .

زوجك عزيز وما زرتة في المستشفى - يا خاينة ! - قبلما يموت!
أه .. أنا كنت مشغولا عنها ببنتي لطفية . هكذا اتفق : جاء
مرض أخي وبنتي لطفية في وقت واحد . من أزور ومن لا أزور ؟
ما تجاوز الثلاثين . أي والله ! شاب حسن الصوت . محبوبك
الأطراف . تمرن مسدة على المصارعة وحمل الأثقال . ووجهه تورد
بالعافية . قلنا فانه مرض العائلة ، حتى .. تزوج . ومن يومها :
كل يوم فهر . كل يوم حرد . كل يوم صالحننا يا حاج ! ضعف وشكا
من معدته . في المستشفى قالوا : قرحة . وماذا في المستشفى
غير الموت ؟

رفع الريشة عن الشاهدة . وجد ان الدائرة عريضة ، ملتوية ،
يسيل منها الدهان ، فلم تعجبه . ولكنه لم يجد وسيلة لاصلاحها ،
فترك الريشة في العلية وأشعل سيكارة ، وجلس يدخن . ثم تذكر
الحفار فقدم له واحدة : هل هو في عمر الحفار ؟

الحاج - كم عمرك ؟
الحفار - حوالي الثلاثين .
لو عاش أنور لكان في الثلاثين . لا .. احسب ! سبعة وخمسون
ناقص ثلاثون يبقى سبعة وعشرون . لو عاش لكان عمره سبعة وعشرين .
أبي . ه .
أخي سعيد . ٣ .

كم قبرا عندنا ؟
أبي وأمي : قبر .
أبني أنور وبنتي لطفية : قبر .
أخي سعيد : قبر .
أختي عائشة : قبر .
خالتي خديجة وزوجها : قبر .
عمتي أم محمد وزوجها : قبر .
باي واحد أبدا ؟ قبر أبي وأمي قريب من الطريق ، ثم أصعد
الى الآخرين .

وقف الحاج صبري فوق قبر عتيق ، أمحت الكتابة عن شاهدتيه ،
وأمسك بيده عليه دهان أصفر ، وبالأخرى ريشة . تأمل القبر قليلا :
خطر بقاء القبر هنا . سياكله الطريق . المرة جعلوا دريهم من هنا ،
سينحتونه بأقدامهم . هل أسوره ؟ أه .. هل أسوره ؟
قرفص . غط الريشة في الدهان ، وقربها بحذر من الشاهدة
المواجهة للقبلة . ورسم دائرة صغيرة .. كاشفة : أبي لا يحب الشياب
الكاشفة . كان يلبس البني فسي الصيف ، والاسود في الشتاء .
عنده سترة أكمامها طويلة ، وطربوش أحمر نيبيذ ، وعكاز أصفر
محفور على مقبضه سنبله بالاسود . هل أرسم سنبله بدل الدائرة ؟
أه .. أرسم سنبله ؟ أو أرسم شجرة ؟ في البيت داخل اطار مذهب ،
أبي رسم شجرة متشعبة الأغصان ، أوراقها غزيرة .. وكتب على كل
ورقة اسما من العائلة . وبعد اسمي ترك غصنا طويلا ، مملوءا بالأوراق
الخضراء .. بلا كتابة .

تزوجت وجادني أنور . أه .. يوم جئاني أنور !! أنزل أبي
الصورة فكفها من الخلف ، وضعها على ركبتيه وكتب « أنور » بالثلث .
يوما ضحك ، ضحك .. وقال لي :

خلص .. أتت استقلت . جاء الخليفة بعدك !
أمي شالت الولد بين يديها وقالت :

شفت بنومي شيخا بلحية بيضاء .. دق على كتفي ثلاث مرات
وقال : « سموه أنور ! هه .. وها نحن سميناه أنور » .

غط الريشة مرة ثانية ، ورسم دائرة أخرى قريبة من الأولى ،
ثم أعاد دهنها . ونهض يتأمل : تمام . هل أكتب اسم العائلة ؟ أه ..
هل أكتب اسمنا ؟ لا فائدة . هذه الدوائر تكفي . إشارة لثلاث تضييع
القبور . والقبر الصغير ؟ أين قبركم الصغير .. يا أولاد ؟
تلفت حوله : هاه ! والله ما كدت اعرفه .. وشاهدته مكسورة !!
من كسرهما .. من كسر شاهدة الأولاد .. أه ؟

حط عليه الدهان والريشة على قبر مجاور ، وقد تملكه الغضب .
وهمَّ أن يسب لولا حرمة الموتى ، فأنحنى على الشاهدة يعدلها :
هه .. ما هي مكسورة . غائرة لتحت . والحفار .. ماذا يفعل
هنا الحفار ؟

مشى الى بيت جديد ، مبني بالحجارة وسط المقبرة ، ودق الباب
بقوة . خرج شاب لف رأسه بشملة ، وبيده كأس شاي .
الحفار - أه .. أهلا الحاج صبري ، كيف حالك يا عمي الحاج ؟
الحاج - (لنفسه) عيب أن تأتيه العصر وتعكر مزاجه .. أه .
عيب ! (بصوت مرتفع) الحمد لله . جئت أنفقد القبور . يعني ..
هكذا تترك قبر الصغار بلا عناية ؟ أخي ! . كف تراب تحت الشاهدة
يكفي .

ابني أنسور ٢٧ .

أنا أكبر منهم جميعا . كيف أكون أكبر من أبي ؟ هو دائما أكبر مني . وأبي يظن ان أنور شاب ، يتجاوز الثلاثين . وأخي فسي الثلاثين ولن يكبر . لن يتجاوز الثلاثين مهما عاش . أوف . الزمن؟! كيف يحتوينا هكذا . . كلنا معا ؟ كلنا في زمن واحد وأعمارنا متساوية !!

أنا أحس نفسي في الثلاثين ، وأخي في الثلاثين دائما . . لا يكبر ولا يصغر . وأبني في السابعة والعشرين . كنت أحسب عمره دائما . كل يوم بيومه .

الزمن . . كيف يحتوينا هكذا ، معا ؟!

يرقدون الآن ، متجاورين . وجوههم نحو القبلة . قلوبهم خادمة في الاكفان مثل ثمرة عجفاء . الشاش يربط أقدامهم ، يعصب وجوههم ، يدور من الحنك الى الرأس . القطن يسد الشفرت . هل يتقلب الميت في رقدته ؟ أوف . سخافة ! طيب . . هل يسمع الحديث ؟

الحاج - هل يسمع الميت ؟

الحفار - يسمع ويرى .

الحاج - من قال لك ؟

الحفار - نحننا مملكة يا حاج ! فيها سلاطينا وعبيدنا . فيها الحداد والنجار ، والقصاب والخياط . فيها السمكري وموظف البريد وجابي الكهرباء . مملكة عامرة يا حاج ! ايه . . الله يرحمنا ! رمى سيكارتة وحمل عليه الدهان . أين قبر أختي عائشة ؟

عائشة . . سامحتها ، رغم كل شيء . الماضي راح . صارت من الذين تجوز عليهم الرحمة . الله يرحمها !

وبيد ثابتة صنع دائرة متقنة ، وجعل يعيد رسمها :

عائشة تعلمت الخياطة . كانت في البيت دائما ، تخط لنا الثياب . ثيابي وثياب ابني وبنتي ، هي صنعتها . دائما وراء آلة الخياطة ، بوجهها النحيف المتناول ، وشعرها الاجعد المتلبد . هل كانت جميلة ؟ ما كانت جميلة . ومع ذلك . . أوف ! يومها كنت سأرتكب جناية . ضربته على وجهه فلم يرفع يده . قال وهو يلمس فمه : أدب أختك . هي نادتنني من وراء الباب .

وأمام وجهه - داخل الدائرة الصفراء - تكونت صورة : أخته عائشة تقبل حارس الحارة . جفونها مسبلة . يدها على كتفه . ثم افرقت عنه حين رأته . الدائرة الصفراء تتسع حتى تشملهما معا متعانقين ، ثم تضيق حتى تكون اطارا لوجه عائشة المتناول .

وما تزوجت . . تخطت سن الزواج ، فبقيت وفيه لذكرى أمها ، تخط لنا الثياب ، تمنى بالاولاد . يوم ماتت لطفية ، عيونها انتفخت من البكاء ، وأنفها احمر وتورم . وبالفصب انتزعنا البنت من حضنها . تبوسها وتبكي . . الله يرحمها ! داومت على الصلاة ، وحضور دروس الاربعة في الجامع . ثم . . لحقها مرض العائلة . ابيض شعرها . تساقطت أسنانها . تفضن وجهها وازداد صفرة . هه . . وهذه دائرة صفراء أيضا ، على قبرها !

من بقي ؟ خالتي خديجة وزوجها . عمتي أم محمد وزوجها . هل يكفي الدهان ؟ يكفي .

خالتي خديجة وزوجها . من توفي أول ؟ هي توفيت أول . هي تحت وهو فوق . المرة الوحيدة التي كان فيها فوق . رجل ضئيل ، أصلع . زار اليونان وهو صغير فتعود تدخين الغليون . وفي كل مناسبة يخرج الغليون ، وينفضه على عقب حدائه ، ولا يتوقف عن ذلك حتى يسأله واحد :

من أين لك هذا الغليون ؟

فينكئ والغليون بين أسانه ، يروي زيارته لليونان .

سميناه « أبو غليون » . خالتي تزعل اذا شافتنا نثقل عليه بالزح . كان معها دائما . أينما راحت معها . وحين توفيت ما صبر

بعدها سنة ومات . معها دائما . . كأنما أمرته من آخرتها أن يلحقها فجاء . هل يسمحون له الآن بتدخين الغليون ؟ هذه دائرة خالتي انتهت . لنبدا بزوجها « أبو غليون » . لا . . حرام ! صار من أهل الرحمة . الله يرحمه . . يرحمنا جميعا .

مسكينة عمتي أم محمد !

أمرأة سمينة ، معلولة . معها علية دواء حيث توجهت . أنت تقرأ القرآن يا ابن أخي ، اقرأ لي ما كتب الطبيب ! ومن يعرف كيف يكتب الأطباء ؟! وزوجها داهية . تزوجها طمعا بمالها . جدي فرق الارث بين أبي وبينها . وهذا تزوجها على طمع . مرة ادعى البطالة ، ورفضت هي أن تطيه المصروف ، فهددها بالانتحار . . أكل أمامها زجاجة مصباح الكاز . قالت لي :

اي والله يا ابن أخي ! كسرنا بكفه وجلس في الشباك يأكلها على مهله ، قطعة وراء قطعة . وأنا أسمع تكسيرها تحت أسنانه وأمعائي تتقطع .

وعلى الشاهدة رأى زوج عمته : شفتاه غليظتان ، شاربه كثيف . حاجباه يغطيان بعض جفنيه ، وهو يضحك عن أسنان سليمة .

وقف راضيا وعد القبور :

أبي وأمي : واحد .

ابني أنور وبنتي لطفية : اثنان .

أخي سعيد : ثلاثة .

أختي عائشة : أربعة .

خالتي خديجة وزوجها : خمسة .

عمتي أم محمد وزوجها : ستة .

ترك علية الدهان على الارض ونفض يديه : لن أقرأ من الآن ، الفواتح على قبور الغرباء . حين أدخل المقبرة سأرى الدوائر واضحة ، ولا أقرأ الفواتح للغرباء . أبوك رسم شجرة العائلة ، سندبانة جذعها راسخ ، وأغصانها منطولة ، وأوراقها غزيرة خضراء . . ثم سقطت ورقته ، وتساقطت بعده الاوراق . .

واحدة

بعد واحدة

بعد واحدة

وبقيت أنت يا حاج صبري !

وصلت اليّ أنا السوسة ، وظهرت علي الاعراض ، ألم تظهر ؟ هذا وجهي اصفر ، ومن فمي سقطت الاسنان ، وشعري صلح بعد أن شاب ، ومعني دائما علية الدواء مثل عمتي أم محمد .

ومع ذلك . . بقيت لي وسامة أبي ، وجهامة أخي ، وماذا بقي لي من ابني أنور ؟ والله . . بقي لي قلبه . أحس اني صغير ، صغير . ويقولون لك : سبعة وخمسون !!

وقبري . . أين قبري الآن ؟

الحاج - جيصنت القبر ؟

الحفار - هندسته على ذوقك . حيطانه مجبصنة ، وأرضه مزرققة . تحب تشوفه ؟

الحاج - أين هو ؟

بين قبر أبيه وولده من جهة الشمال ، انتصب قبر فخم ، بشاهدين من الحجر الابيض النحيت .

الحاج - اكتشفه لاشوف !

أمسك الحفار مجرفته ، وجمل يكشف عنه التراب ، وقد باعد ما بين قدميه .

وفكر : الان أنزل أقيسه . يجب أن أقيسه لآلف قبري . سأعرف كيف تكون رقدتي الابدية .

ورفع الحفار بحذر أربع بلاطات عريضة ، وأسندها بعيدا وهو يلهث . وانفتحت في الارض حفرة فوهاء .

الحاج - سأنزل أقيسه .

الحفار - كما تحب . لكن من هذه الناحية . هات يدك . .

أبوه ! حتى لا تترد التراب .

داس على الأرض المزرقة بقدميه ، ولمس الجدار .. أمس !
تفوح منه رائحة رطبة ، ثم جلس بحذر .. برودة لأذعة ! مدد رجله ،
واستلقى ، ونظر الى أعلى : فوهة القبر دوائر نور تفيض .. تفيض .
فوق .. بعيدا .. قطعة سماء زرقاء ، عالية . فيها غيوم بيضاء
متفرقة ، تزيد شعوره بالابتعاد . وحوله الظلمة ، والرطوبة اللزجة .
ثنى يديه على صدره ، وأغمض عينيه : هذه ناحية القبلة ؟
ولفت وجهه ناحية ، ظننا القبلة : جميعهم ، حولي ، وجوههم نحو
القبلة . قلوبهم خادمة .

وحبس نفسه : وحدي سأبقى هنا ، الى الأبد . سنوات بعدها
سنوات . تطلع الشمس وتغيب ، وأنا وحدي هنا . جسدي على هذه
الأرض . كل الجدران محكمة ، فمن أين يأتي الدود ؟ هل ينبع من
جسدي الدود ؟ سيمري الدود اللحم عن العظام ، وتهترىء الأكفان ،
ويبقى العظم عاريا ، على أرض عارية . وجيرانى الاموات . مملكة كلها
موتى . اول ليلة ابات في هذه المملكة ما يكون ؟ والمكان .. هل
يسالني المكان !?

... وجهان لم يرهما من قبل . اشوهان ، اجتمع راساهما معا ،
وايديهما كثيرة ، لها زعانف مشرشرة ، كزعانف سرطان بحري ، اسود .
الراسان يتلاصقان ويتباعدان ، والزعانف حولهما ، لا تكف عن الحركة .
ورائحة ننتنة .. عفونة كافور تشير الفشيان ، غلغته . وشبكة الزعانف
تضييق حوله تضيق . والراسان .. تلاصقا وابتعدا . ابتعدا وتلاصقا
.. ومشاعل النار ، يحترق فيها كافور يشير الفشيان .

الزعانف امام وجهه . لمست خده . سدت النور في بؤبؤ عينيه .
ورائحة الكافور انحشرت في انفه ، في جسمه ، احاطت وجوده برائحة
الموتى . ومفص عصره من الداخل . والرعب جوَّفه .. نرعه فارغا .
وقلبه يتلاطم بين ضلوعه .

صرخة كبيرة ، شقت شبكة الظلام المتكاثفة حوله . وصوت
انساني متلهف :

سلامتك يا حاج .. خير يا حاج !

وثب على قدميه ، وتشبث باطراف القبر ، ووجهه يفتسل بالعرق
البارد . قلبه ما يزال يرتطم بصلوعه ، وعيناه انقلبنا بيضا خالسا ،
وقطرات ثقيلة ، تحرق جفنيه . لهث فعلا التراب انفه ، وسد حنجرتة .
فسعل بصوت مجروح . والصوت الانساني :

سلامتك يا حاج . هات يدك . مد يدك واطلع لفوق !

يداه انفرزتا بالتراب ، وفكه الاسفل يرتجف بلا ارادة . والغبار
يزيد من كثافة الهواء كلما تنفس .. وتعلق باليد السمراء الممتدة اليه .
استنده الحفار الى شاهدة ، وجرى الى البيت ، ثم عاد بابر يق
ماء .. سقاه .

الحفار - كيف انت الان ؟

الحاج - مليح .. اوف ! عندي ضيق نفس .. نفسي ضيق ولا
اطيق الرطوبة .. تحت ظلام .. والهواء فاسد .

قلبه ما يزال يتراكم كالارنب المطارد ، ودوائر حمراء تفيض
امام عينيه . وحباب من الهواء تبعق زرقة السماء . وابتلع بالماء حيتين
من دواء يحمله : صحو اكثر . غابت الدوائر الحمراء . وتلاحمت زرقة
السماء . فضاء رحب ، فانض بالنور والنقاء : الحمد لله .. اوف ،
الحمد لله .

ونشق هواء ملء رئتيه ، ونفض التراب عن ثيابه ، وغسل وجهه
ويديه بالماء .

الحفار - كيف وجدته ؟

الحاج - مليح .. لكن ظلام .

وضحك الحفار - هذه مملكة الظلام . ماذا مع الموت غير الظلام !?

الله يرحمنا .. يا حاج !

جلس الحاج صبري يدخن ، ويرقبه يرد البلاطات الى مكانها ،
ثم يمسك بيدى فويتين الجرففة ، ويردم التراب : حفار ؟ كئيبة صنعة
الحفار . شاب في مثل عمره يعمل حفارا ، ويتام هنا مع الاموات ،
بين القبور !!

الحاج - تنام هنا ؟

الحفار - اي .

الحاج - ولا تخاف ؟

الحفار - من اي شيء اخاف ؟

الحاج - يعني .. وحدك في المقبرة .

وتوقف يسمح بكمه العرق عن جبينه ويضحك . وظل الحاج
عابسا .

الحاج - وسكان المملكة . لو خرجوا هكذا .. ؟

الحفار - ليخرجوا .. فيهم امي وابي وابن خالتي اسعد وامام
الجامع ، الله يرحمه . كلهم اهل واصحاب .
ثم عاد يردم التراب .

الشمس هبطت وراء المقبرة ، ولونت الاشياء بظلال قاتمة . وسقط
ظل الحفار المتطاول امام الحاج صبري فتفت الدخان بين قدميه
وفكر : يدان شابان لا تكفان عن الحركة . شاب لا يفكر في الموت
لانه شيء عنه بعيد . اهل الثلاثين لا يفكرون بالموت . هم اصحاب
الحياة فلم يفكرون بالموت ؟ الموت والظلام والرطوبة .. تحت . ماذا
جرى لي تحت ؟ هذا الرعب الذي غلف وجودي ؟ والمفص .. المفص
الذي جوفني ؟ كنت اشهق .. اه . كنت اشهق . تحت .. عالم
غريب .

وهنا .. فوق .

الاشياء اكتست وضوحا داهما ، ورأها بدهشة كأنما يراها لأول
مرة . هنا .. الالوان والاشياء . الحجر ابيض . الشجرة خضراء .
السماء زرقاء . الافق ملون بالاحمر المائج بالزرقة . والبيت له باب ،
وقربه شجرة صنوبر !!

ونحن .. لنا ايد ، ارجل ، وجوه . اصوات تنكلم ، تضحك ،
تفني ، تحزن ، تخاف . عالم اليك .. له تاريخ .
وماذا هناك ؟ عالم غريب ، بلا ثقة ولا تاريخ . حضر هكذا .. فجأة
وغاب . مملكة عامرة بالموتى ، واشباح الكوايبس .

ظل الحفار يتحرك امامه ، يعمل ، يجرف ، يدها تتردمان التراب :
رجل يعيش في عالم الحركة والاصوات . يتحرك ولا يفكر بالموت .
وهل يفكر بالموت الا الاموات ؟

وتخيل الشجرة الباسقة التي رسمها ابوه ، وما تزال معلقة في
البيت على الجدار : آخر ورقة في شجرة العائلة . وسوف تسقط
الورقة بعد قليل . اعرف نفسي . عشت اكثر من كل الآخرين . ربما
عشت اكثر منهم لانهم حسابهم مع الحياة .

نهض الحفار لاهثا ، يتأمل عمل يديه باعجاب . ورمى الجرففة
بعيدا ، ومسح عرقه . رفع ابريق الماء الى أعلى ، واحنى راسه الى
الوراء يشرب . خيط الماء ينساب من زاوية فمه ، الى عنقه الذي
تخضب . والتمتع عليه العرق . وبرز فيه وريد ينبض بالدم ، كأنما
يهم بالنفور .

لمحه الحاج بطرف عينه ، ثم صرف بصره عنه الى يده فرأها :
ورقة صفراء التصق جلدها على العظم ، وملانها بقع داكنة . وانتشرت
فيها عروق يابسة ، يتسرب فيها دم خائر ، كسول .. دم متعب ، ارهقته
الادوية والسنون .

فتحسر .. ونظر الى التراب .

نديم خشفة